الشيخ الإمام

محمد بن عبد الوهاب ومنهجه في مباحث العقيدة

١١١٥هـ - ١٢٠٦هـ

د. آمنة محمد نصير

دار الشروق

البَـابُ الـرّابع

التَصَوّف وَصِلتهُ بالعَقيـدَة

الفصل الأول : موقفه من التصوف

الفصل الثاني : التفرقة بين جوهر التصوف وأشكاله

الفصل الثالث : موقفه من التوسل .

الفصل الأول

موقفه من التصوف

أولا : تمهيد : الصراع بين الفقهاء والمتصوفة :-

انتهينا في الفصول السابقة من بيان موقف ابن عبد الوهاب من بعض مباحث العقيدة فأوضحنا موقفه من الاجتهاد والتقليد وأن الجمود والتأخر الذي أصاب العالم الاسلامي كان من جراء التقليد ، ثم تناولنا بالتحليل والتطبيق منهجه في ربط العلم بالعمل . وفي الباب الثالث تناولنا عدة مسائل في الغيبيات وبيان موقفه منها والمنهج الذي سلكه في تلقي هذه الأمور مع مقارنة موقفه ببعض السابقين عليه مع التحليل والتمحيص للآراء التي ذكرت . ونتناول في هذا الباب موقفه من التصوف ونبدأه بهذا التمهيد في الصراع بين الفقهاء والمتصوفة :

أخذت الحضارة طريقها إلى العرب وواكب ذلك علم التدوين وأعني تدوين العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وعقائد ، وقد ساير الصوفية ركب هذا الموكب فدونوا علومهم وبينوا رياضاتهم والمراتب التي يتدرج فيها الصوفي ، والآفات التي تعترض طريقه ، واصطلحوا على ما اصطلحوا عليه من الفناء ، والبقاء والصحو والسكر حتى أصبح التصوف علما من العلوم المدونة ويقول في ذلك د. التفتازاني : « فقد وضعوا لأنفسهم مصطلحا خاصا ورموزا معينة لا يفهمها أحد حق الفهم إلا بالتلقي عنهم »[1] .

---

(١) د. أبو الوفا التفتازاني - الطرق الصوفية في مصر - مجلة كلية الآداب / جامعة القاهرة جـ ٢ ص ٥٨ .

ومنذ عصر التدوين اشتد الخلاف بين الفقهاء والصوفية ويرجع هذا الخلاف إلى أن الفقه علم يبين أحكام الأعمال الظاهرة من عبادات ومعاملات وجنايات وأحوال شخصية وغيرها ونظروا إلى علم التصوف والمتصوفة نظرة تحقير من شأنه لأنهم أرباب ظواهر ، ونظروا إلى أنفسهم نظرة فيه أنفة واعتداد ، وتبادل الفريقان الكراهية والحقد[1] إلى أن تطورت إلى رمي كل فريق بالكفر وتفاقمت المشكلة وما المعارك التي نشبت في المساجد بين الفقهاء والصوفية إلا راجعة إلى إمعان الصوفية في الباطن وإسرافهم في التحدث عما في هذا الباطن من ضمير يستلهمونه المعرفة كما يستلهمونه الحكم على الأعمال .

اعتماد الصوفية على المعرفة الحاصلة عن طريق الالهام ، وذلك يخالف ما دعا إليه القرآن من المعرفة عن طريق النظر والاستدلال ، وتحكيم الضمير وإعطائه سلطة الحكم على الأعمال يخالف الشريعة الاسلامية لأنها تقوم الناس بحسب الظاهر لا الباطن ، وتثيب المحسن على إحسانه وتعاقب المذنب على ذنبه .

ويدافع أصحاب الفكر الصوفي على هذا الاتجاه أي أن للشرع ظاهرا وباطنا فيقول أبو الفيض المنوفى : « وسبب ذلك أن للقرآن باطنا وظاهرا ، وجدا ومطلعا كما جاء في السنة ، ومن الآيات ما يؤخذ على ظاهره ومنها ما يحتاج فهمه فهما صحيحا لتأويله وتخريج معناه على الوجه الصحيح »[2] .

هكذا كان الصراع بين الفقهاء والصوفية الفقهاء ينددون بالمنهج الصوفي والصوفية يقررون منهجهم ويضعون لعلمهم المصطلحات والتفاسير الخاصة بكل طريقة ويؤكد الدكتور التفتازاني هذه الحقيقة فيقول : « ولما كان الصوفية الأوائل قد فرقوا بين علم الشريعة أو علم الظاهر الذي هو على الجوارح الظاهرة وعلم الحقيقة أو علم الباطن الذي هو على الجارحة الباطنة وهي القلب وجعلوا علمهم اكثر يقينا من العلوم الأخرى وجعلوه ثمرة الشريعة وروحها »[3] .

---

(١) كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ـ لابن الجوزي حافل بذكر العديد من الحوادث والاشتباكات التي حدثت بين فقهاء الحنابلة والصوفية .

(٢) السيد محمود أبو الفيض المتوفي ـ المدخل إلى التصوف الاسلامي ـ ٩٨

(٣) د. أبو الوفا التفتازاني ـ الطرق الصوفية في مصر ـ مجلة كلية الآداب / جامعة القاهرة ـ مجلد ٢٥ ـ جـ٢ ـ ٥٨

كان من ثمرة هذا الصراع بين الطائفتين أن سيق إلى المحاكمة أمام قضاة بغداد كل من ذي النون المصري والحلاج وغيرهما ، وقد شهد النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بداية الصراع بين هاتين الطائفتين واستمر الصراع إلى أن جاء الغزالي[1] وقد استطاع كما يصفه د. مصطفى حلي بما أوتي من صفاء الروح وجلاء القلب وذكاء العقل وقوة الايمان أن يهدىء ثورة الفقهاء ويدعو إلى الدين الصحيح ويحبب التصوف إلى نفوس أهل السنة ، تكاثر عدد المقبلين منهم عن طريق الذوق الموصل إلى المعرفة اليقينية والسعادة الحقيقية وتلقوا هذا التصوف بقبول حسن وأحلوه محلا رفيعا إبان القرنين الخامس والسادس للهجرة[2] .

ويشارك د. أبو الوفا التفتازاني د. حلمي نفس الرأي فيقول : « وكان مجيء الامام الغزالي في رأينا من العوامل الهامة التي غيرت من مجرى التصوف الاسلامي ، فقد أرسى الغزالي قواعد التصوف السني »[3] .

جاء بعد الغزالي صوفية مزجوا مسائل الكلام والفلسفة الالهية بعلمهم وكانت لهم مذاهب في الاتحاد ووحدة الوجود ووحدة الشهود . . . تجدد العداء ونظر الفقهاء إلى هذا الاتجاه ، واعتبروه زندقة والحادا ولذا شهد القرن السابع للهجرة وما تلاه من القرون حركة متتابعة من الخصومات بين الفقهاء والصوفية وكانت مذاهب وحدة الوجود والحلول ووحدة الشهود هي المحور الرئيسي الذي دارت حوله هذه الخصومات وقد حمل لواء الطعن على الصوفية وبصفة خاصة على التصوف الفلسفي ابن تيمية فقد جرح ابن عربي وابن الفارض وابن سبعين وعفيف الدين التلمساني وقد بلغت خصومة ابن تيمية مداها حينما اعلن تحريم زيارة الأضرحة والدعاء للأولياء والتوسل بهم ، ومنذ ذلك الحين اشتدت الخصومة بين الفقهاء والصوفية واتخذت اشكالا مختلفة على أيدي كثير من الفقهاء وأوضح دليل على ذلك ما حدث حول ابن عربي وابن الفارض من

(١) مع العلم بأن الغزالي لم يفلت من هجوم الفقهاء والعلماء على تركه منهج الفقهاء وانخراطه في سلك التصوف وتأليفه الكتب الصوفية .
(٢) د. مصطفى حلمي ـ الحياة الروحية في الاسلام ـ ص ١١١
(٣) د. التفتازاني ـ الطرق الصوفية في مصر ـ ص ٦٠

خلاف فالبعض نسبهما إلى الاتحاد والحلول ووحدة الوجود ، وطعن في سلوكهما والبعض الآخر نفى هذا عنهما وبرأ ساحتهما . كان ابن تيمية القائد الأول لحركة الطعن التي وجهت فيها سهام التكفير إلى اصحاب الأذواق والمواجيد .

ومن الناعين الناقدين على انحرافات الصوفية التي عمت في القرن السادس الهجري الفقيه الحنبلي أبو الفرج بن الجوزي وكتابه « تلبيس ابليس » صورة واضحة لما عابه عليهم وما وجهه إليهم من نقد حول الأخذ بالحقيقة دون الشريعة ومن ذم العلم إلى آخر ما ورد في كتبه .

ومن أجل هذا لم يتردد ابن تيمية في تكفيرهم ، بل اعتبرهم أشد كفرا من اليهود والنصارى : « الباطن والظاهر . . . والشريعة والحقيقة كل هذا مردود إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا إلى المشايخ والفقراء ولا إلى الملوك والأمراء ، ولا إلى العلماء والقضاة وغيرهم ، بل جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله ﷺ »(١) .

ويذهب إلى نفس الرأي ابن عبد الوهاب فيقول : « إني عثرت على أوراق عند ابن عزاز فيها اجازات له من عند مشايخه ، وشيخ مشايخه رجل يقال له عبد الغني ، ويثنون عليه في أوراقهم ويسمونه العارف بالله . وهذا اشتهر عنه أنه درس دين ابن عربي الذي ذكر العلماء : أنه أكفر من فرعون حتى قال ابن المقري الشافعي : « من شك في كفر طائفة ابن عربي فهو كافر »(٢) .

هذه وقفة امام الصراع أو جانب منه بين الفقهاء والمتصوفة منذ بدأ عصر التدوين للعلوم الشرعية ، ونتناول بالبحث والتحليل موقف صاحب الدراسة من التصوف .

ثانيا : محمد بن عبد الوهاب والتصوف

إن قضية التصوف وما تثيره من الآراء المعارضة له أو الآراء المؤيدة حول هذا الموضوع استمرت ردحا طويلا من الزمان . ونحن الآن بصدد بيان موقف

---

(١) ابن تيمية ـ مجموعة الرسائل والمسائل ـ جـ١ ص١٣٧ .
(٢) ابن غنام ـ تاريخ نجد ـ الرسالة السابعة ـ ٣٠٧

ابن عبد الوهاب من هذه القضية والتي ألمحنا آنفا إلى مدى الصراع الذي استمر بين الفقهاء والصوفية فترة طويلة نستطيع أن نقول أنه أشعل نارها : بموقفه من أفعال العامة مع الأولياء حول الأضرحة ويقول في ذلك : « وأما ما صدر من سؤال الأنبياء والأولياء بالشفاعة بعد موتهم وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها والسرج والصلاة عندها واتخاذها أعيادا وجعل السدنة والنذور لها فكل ذلك من حوادث الأمور »[1] . فرفض ابن عبد الوهاب لهذه الأمور أشعل الجدال والقتال حول هذه المفاهيم مما سنتناوله بالتفصيل .

يستطيع الباحث المنقب في جوانب شخصية ابن عبد الوهاب أن يجد الصلابة والقدرة على مواجهة الخصوم وتحليل الآراء المخالفة وتفنيدها ودستوره الكتاب والسنة فما وافقهما فهو حق وما خالف واحدا منهما فهو باطل ومردود .

ويترتب على منهجه هذا أن قبل كل ما يجد له برهانا من ربه أو سندا صحيحا من سنة رسوله . وسطر منهجه فقال : « ولست ـ ولله الحمد ـ أدعو إلى مذهب صوفي أو فقيه ، أو متكلم ، أو إمام من الأئمة الذين أعظمهم ، مثل : ابن القيم والذهبي ، وابن كثير ، وغيرهم بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأدعو إلى سنة رسول الله ﷺ »[2] .

رفض ابن عبد الوهاب أي عمل أو فكر يخرج عن هذا الدستور واعتبره بدعة . فعاب على المتصوفة الاسراف في تعذيب النفس وحرمانها مما أحل الله فيقول : « تركهم الواجب ورعا ، وتعبدهم بتحريم الطيبات من الرزق وتعبدهم بترك زينة الله »[3] .

هاجم ابن عبد الوهاب اعتكاف المتصوفة في خلواتهم وبعدهم عن ممارسة الحياة وتعمير هذا الكون بشريعة الله فيقول : « وكذلك أيضا من اعظم الناس ضلالا متصوفة في معكال وغيره ، مثل ولد موسى بن جوعان وسلامة بن مانع ، وغيرهما ، يتبعون مذ هب ابن عربي وابن الفارض وقد ذكر

---

(١) الدرر السنية ـ كتاب العقائد ـ جـ ١ ص ٥٨ .
(٢) ابن غنام ـ تاريخ نجد ـ الرسالة الأولى ص ٢١٥ .
(٣) مجموعة التوحيد ـ الرسالة الأولى ـ مسائل الجاهلية ص ٢٣٩ .

أهل العلم أن ابن عربي من أئمة أهل مذهب الاتحادية ، وهم أغلظ كفرا من اليهود والنصارى ، فكل من لم يدخل في دين محمد ﷺ ويتبرأ من دين الاتحادية فهو كافر بريء من الاسلام ، ولا تصح الصلاة خلفه ، ولا تقبل شهادته »[١] .

ورغم أنه يستشهد بقول أهل العلم على حد تعبيره إلا أنه في موضع آخر يتبرأ من أنه يرمي ابن عربي أو ابن الفارض بالكفر فيقول : « وإني أكفر من حلف بغير الله - وإني أكفر ابن الفارض وابن عربي . . . » « جوابي عن هذه المسائل أن أقول سبحانك هذا بهتان عظيم »[٢] .

نخلص من منهجه الذي أشرنا إليه آنفا ومن كتاباته من واقع كتبه ورسائله إلى تلخيص موقفه من التصوف والصوفية وما عابه عليهم في النقاط الآتية :

(١) أول ما كاد الشيطان للناس أن أغواهم بتعظيم الصالحين تعظيماً خارجاً عن مقام الاستقامة كما ذكر الله ذلك في كتابه : ﴿ **وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا** ﴾[٣] . قال الكليبي هؤلاء قوم صالحون فماتوا في شهر فجزع عليهم أقاربهم وقال لهم رجل هل لكم أن أعمل خمسة أصنام على صورهم ومع توالي القرون والأزمان ازداد تعظيمهم لهذه الأصنام[٤] .

(٢) تمسك ابن عبد الوهاب في دعوته الى تنقية التوحيد وإخلاص الدين لله فيقول : « لكني بينت للناس إخلاص الدين لله ونهيتهم عن دعوة الأنبياء والأموات من الصالحين وغيرهم وعن إشراكهم فيما يعبد الله به من الذبح والنذر والتوكل والسجود وغير ذلك مما هو حق الله الذي لا يشركه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، وهو الذي دعت اليه الرسل من

---

(١) ابن غنام - تاريخ نجد - الرسالة العاشرة - ص ٣٤٤ .
(٢) ابن بشر - عنوان المجد في تاريخ نجد جـ ١ ص ٧ ط بغداد .
(٣) نوح : ٢٣ .
(٤) الدرر السنية جـ٢ - ٣ ص ٥١ .

أولهم الى آخرهم وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة »[1] .

(٣) حذر ابن عبد الوهاب من الانخداع تحت أي مسمى يخدش التوحيد او ينال من حق الله على العباد فيقول : « فمعلوم أن اللغات تختلف : فالمعبود عند العرب ، والإله الذي يسميه عوامنا « السيد » و « الشيخ » و« الذي فيه السر » عندهم هو القدرة على النفع والضر وكونه يصلح أن يدعي ويرجى ويخاف ويتوكل عليه»[2] .

(٤) ثم يرد على القائلين بأنهم يعرفون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر ، لكن هؤلاء الصالحين مقربون ونحن ندعوهم وننذر لهم ، وندخل عليهم ونستغيث بهم ـ بذلك الوجاهة والقربى ـ يرد ابن عبد الوهاب على هؤلاء بقوله : « كلامك هذا قول أبي جهل وأمثاله ، فإنهم يدعون : عيسى وعزيراً والملائكة والأولياء يريدون ذلك[3] . كما قال الله تعالى ، ﴿ **والذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾[4] .

(٥) ومن بين الأشكال التي اتخذها الناس للتقرب إلى الأولياء والصالحين وهم بهذه الأعمال يشبهون النصارى الذين منهم من يعبد الله الليل والنهار ويزهد في الدنيا ويتصدق بما لديه معتزلا في صومعته عن الناس ، ومع هذا فهو كافر ، عدو الله ، مخلد في النار بسبب اعتقاده في عيسى أو غيره من الأولياء ، يدعوه ، ويذبح له ، وينذر له . ويبين ابن عبد الوهاب فضل الاسلام في النهي عن كل هذه الأمور فيقول : « فقد تبين لك كيف صنعه الاسلام الذي دعا إليه نبيك ﷺ وتبين لك أن كثيرا من الناس عنه بمعزل »[5] .

---

(١) الدرر السنية ـ كتاب العقائد ـ جـ١ ص ٤٦ ـ ٤٧ وكذلك ابن غنام الرسالة الثانية عشر ص ٣٥٩ .

(٢) ابن غنام ـ تاريخ نجد ص ٣١٠ ـ ٣١١ .

(٣) ابن غنام ـ تاريخ نجد ص ٤٦٩ .

(٤) الزمر : ٣

(٥) ابن غنام ـ تاريخ نجد ص ٤٧٠ .

(٦) يهاجم أهل عصره بأن كفرهم أشد من كفر أهل زمان لأن كفار زمان كانوا اذا مسهم **الضّر ـ تركوا السادة** والمشايخ فلا يدعون أحدا منهم ولم يستغيثوا به ، بل يخلصون لله في الشدة فإذا جاء الرخاء أشركوا . ويقول في ذلك : « وأنت ترى المشركين من أهل زماننا ـ ولعل بعضهم يدعي أن من أهل العلم ، وفيه زهد واجتهاد وعبادة ـ إذا مسه الضر قام يستغيث بغير الله مثل : معروف ، وعبد القادر الجيلاني ، وأجل من هؤلاء مثل رسول الله ﷺ . وأعظم من ذلك وأطم أنهم يستغيثون بالطواغيت والكفرة والمردة مثل شمسان وادريس ـ ويوسف وأمثالهم »[١] .

(٧) يلزم ابن عبد الوهاب القائل بقول «لا إله إلا الله» أن يلتزم بهذا التزاماً عملياً لا قولاً بلا فعل: فقوله: «لا إله إلا الله» ابطال للوسائط وعلى العبد أن يلتزم بتبعاتها من توحيد للألوهية والربوبية لا الثانية دون الأولى . وعلى كل مسلم أن يتذكر أن أعظم ما أرسل به الله نبيه محمد . فيقول : « وأعظم من ذلك ، وأكبره ، وزبدته ، هو إخلاص الدين لله ، بعبادته وحده لا شريك له والنهي عن الشرك ، وهو أن لا يدعي أحد من دونه من الملائكة ، والنبيين ، فضلا عن غيرهم ، فمن ذلك أن لا يسجد إلا لله ولا يركع إلا له ، ولا يدعى لكشف الضر إلا هو ، ولا لجلب الخير إلا هو ولا ينذر إلا له ، ولا يحلف إلا به ولا يذبح إلا له ، وجميع العبادات لا تصلح إلا له وحده لا شريك له . وهو معنى قول : « لا إله إلا الله »[٢] .

(٨) يحذر من الاعتقاد في مخاريق السحرة والانخداع في هذا اللون من الاعتقاد فيقول : « اعتقادهم في مخاريق السحرة وأمثالهم أنها من كرامات الصالحين »[٣] ، ويتابع هجومه على من يغتر في هؤلاء القوم

---

(١) المرجع السابق .
(٢) ابن غنام ـ تاريخ نجد ـ الرسالة الثالثة ـ ص ٢٥٥ .
(٣) مجموعة التوحيد ـ مسائل الجاهلية ـ ص ٢٣٩ .

فيقول : « ثم صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع إلاّ أن الأولياء لا بد منهم من ترك أتباع الرسل ، ومن تبعهم فليس منهم »[1] .

(٩) إهمالهم العلم ومحاربة من يشتغل به من الاتباع ، انغماسهم في رياضة الأبدان على غير ما أمر الله ورسوله ويسوق حديث رسول الله ﷺ « إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة ثم يقول : « فإن الذي أنا عليه وأدعوكم إليه هو في الحقيقة الاقتداء بأهل العلم ، مع عدم اتخاذ العلماء أربابا والذي ذمه الله وسماه شركا »[2] .

(١٠) النذر للقبر وأهل القبور من الأمور التي انتشرت أو زاد انتشارها في عهده نتيجة للتخلف الذي ساد عصره ثم التفاف العامة حول الأولياء والمتصوفة ونذر النذور لهم ويعتبر ذلك معصية ولا يجوز الوفاء به فيقول : « إن النذر للمخلوق لا يجوز ، ومنها : ظن أن الميت يتصرف في الأمر واعتقاد هذا كفر . . . » إلى أن قال « إذا عرف هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت ونحوها ، وينقل إلى ضرائح الأولياء ـ فحرام باجماع المسلمين ، وقد ابتلي الناس بهذه لا سيما في موكب أحمد البدوي »[3] .

(١١) ينعى ابن عبد الوهاب على ما يفعله الجهلة والطغام وعدلوا عن اوضاع الشرع إلى اوضاع وضعوها لأنفسهم مثل تعظيم القبور وإكرامها وايقاد السرج وتقبيلها وخطاب الموتى بالحوائج وكتب الرقاع فيها مثل افعل لي كذا وكذا وأخذ التراب والتبرك به وإفاضة الطيب على القبور وشد الرحال إليها وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى . وهذه الأفعال هي عودة الناس إلى ما كان عليه مشركو العرب الأولون من التعلق بغير الله من الأولياء والصالحين وغيرهم من الأوثان والأصنام والأحجار ويذهبون إلى قبر زيد بن الخطاب يسألونه قضاء الحاجات

---

(١) المرجع السابق ـ ص٢٤٢ .
(٢) ابن غنام ـ تاريخ نجد ـ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .
(٣) ابن غنام ـ تاريخ نجد ـ ٣٠٤ ـ ٥٢٠ .

وتفريج الكربات وقبر يزعمون أنه قبر ضرار بن الأزور .

وشجرة تسمى الطريفة يعتقدون فيها كما اعتقد من قبلهم في ذات أنواط مشركو الجاهلية ويعتقدون في شمسان ويوسف . . . الخ .

ويهاجم الحلولية وملاحدة الصوفية على ما يرون أنه من الشعب الايمانية والطريقة المحمدية وفيهم من إضاعة الصلوات وشرب المسكرات ما هو معروف مشهور(١) .

ثم يتساءل ويقول : « فاين هذا ممن يدعو الله مخلصا له الدين لا يدعو مع الله أحد ولكن يقول في دعائه أسألك بنبيك ، أو بالمرسلين ، أو بعبادك الصالحين أو يقصد قبر معروف أو غيره يدعو عنده »(٢) .

ويخلص بعد ذلك إلى أن هذه الأفعال والأقوال فيقول « فليس هذا من دين المسلمين ، فهذا هو الصواب بلا ريب »(٣) .

(١٢) بالاشارة إلى أن هذه الأفعال السابقة تبين مدى مخالفة الناس لكتاب الله وسنة رسوله الذي لم يشرع لأمته أن يدعو أحدا من الأموات ولا الأنبياء ولا غيرهم بلفظ الاستغاثة ولا غيرها .

(١٣) لم يشرع السجود لميت مهما كان . ولا يوجد أي نص يحض على الاتيان إلى المقابر والدعاء عندها والطواف حول الأضرحة وطلب قضاء الحاجات(٤) .

نخلص مما سبق إلى أن ابن عبد الوهاب أنكر كل عمل يخالف الكتاب والسنة ، ويبعد الانسان عن مفهوم التوحيد النقي ولذلك كانت حملته عميقة ضد جميع ألوان الشرك في السلوك أو في الاعتقاد صدر من العبد بقصد أو غير قصد وشهر سلاحه وقلمه من أجل عودة الاسلام إلى نقائه وصفائه من الشوائب التي تردى فيها الناس في عصره وإن كان من المؤسف أن هذه المظاهر

---

(١) عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ ـ مشاهير علماء نجد وغيرهم ترجمة محمد بن عبد الوهاب ص ٢٩ .

(٢) ابن غنام ـ تاريخ نجد ص ٥٢٦ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) الدرر السنية جـ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ـ ٢٠٣ .

التي حاربها ابن عبد الوهاب من تبرك بالأولياء أو طواف بالأضرحة ونذور وموالد وغير ذلك ما زالت وتحتاج إلى وقفة من العلماء في كل مكان من العالم الاسلامي لوقفها لأنها بدعة لا يقبلها الاسلام ولا تليق بالمسلمين .

نعود لنطرح موضوع التصوف مرة اخرى بعد ما عالجنا رفضه للمظاهر والأشكال التي ترتبت على مفهوم الأولياء والسادة من الصوفية وسلوك العامة تجاههم وما ترتب على ذلك من اعتقادات ومفاهيم رفضها ابن عبد الوهاب رفضا قاطعا وحاربها بكل سلاح يملكه . هل كان نفس الموقف تجاه جوهر التصوف هو عين الموقف السالف الذكر؟ هذا ما سنتناوله في الصفحات القادمة .

الفصل الثاني

التفرقة بين جوهر التصوف وأشكاله

تمهيد :

رأينا أن ابن عبد الوهاب رفض جميع أشكال المتصوف التي تخرج الإنسان عن دائرة اخلاص العبودية لله في جميع أنواع العبادات الى التردي في متاهات الجهل والخرافات التي انتشرت في زمانه وحاربها بالكلمة والسيف . ويقول في هذا : « وهذه هي المسألة التي تفرق الناس لأجلها بين مسلم وكافر ، وعندها وقعت العداوة ، ولأجلها يشرع الجهاد[1] كما قال تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾[2] .

إذن ما الذي قبله من التصوف وتحت أي شروط قبلها ؟ قبل ابن عبد الوهاب جوهر التصوف الذي لا يتصادم مع الشرع بل لابد ان يخضع للشروط التي وردت في كتاب الله وسنة رسوله فلم ينكر الكرامة وأقربها وأحب اولياء الله الذين يحبهم الله وعليه يتوكلون . ووافق على تنزيه الباطن بالشروط والقوانين الشرعية المستمدة من الكتاب والسنة فمقام التوحيد مقام رفيع والتوكل والمحبة والإخلاص أساس الإيمان . ثم نتناول بالتفصيل والتحليل موقفه من التوسل المقبول والمرفوض .

---

(١) مجموعة التوحيد ص ٢٣٦ .
(٢) الأنفال : ٣٩ .

الكرامة :

أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة تظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم المتابعة لنبي كلف بشريعته مصحوبا بصحة الإعتقاد والعمل الصالح . ويقرن بينها وبين المعجزة بأن المعجزة تكون مقرونة بدعوة النبوة بخلاف الكرامة ، ومن أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها . وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة وهي أعظم دلالة على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته وأنه فعّال لما يريد وأنه كما أن لله سننا وأسباباً تقتضي مسبباتها الموضوعة لها شرعاً وقدرا ويستشهد ابن عبد الوهاب من سورة الكهف فيقول: «الرد على منكري الأسباب ، لأنه سبحانه قادر على إنجاه السفينة وتثبيت أبوي الغلام وإخراج الكنز له بدون ما جرى»[1] .

كما أن له سبحانه سننا أخرى لا يقع عليها علم البشر ولا تدركها أعمالهم وأسبابهم ، فمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء بل وأيام الله وعقوباته في أعدائه الخارقة للعادة كلها تدل دلالة واضحة أن الأمر كله لله وأن لله سننا لا يعلمها إلا هو . وقيل : أن الكرامة من المبشرات التي يجعلها الله لمن أتت على يديه . وهي تارة يرى الإنسان مالا يراه غيره يقظة ومناما ، وتارة يعلم مالا يعلمه غيره وحيا والهاما أو إنزال علم ضروري أو فراسة صادقة ويسمى كشفا ومشاهدات ومكاشفات ومخاطبات فالسماع مخاطبات والرؤ ية مشاهدات والعلم مكاشفة ويسمى ذلك كله كشفا ومكاشفة .[2] .

وفي الترمذي عن علي رضي الله عنه قال : « كنت مع رسول الله ﷺ

(١) ابن غنام - تاريخ نجد - ص ٦٣٨ .

(٢) عبد العزيز السلمان - الكواشف الجلية عن معاني الواسطية - ٤٣٠ وكذلك صدر الدين أبي العز الحنفي - شرح الطحاوية - ٤٢ ، ٢٤ ، عبد الكريم القشيري - الرسالة القشيرية ١٥٨ .

بمكة فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا جبل الا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله » (١) .

وتحفل كتب السيرة والتاريخ بعشرات من كرامات النبي ﷺ وأولياء الله الذين يلتزمون بطريق الحق .

ومن باب كرامة السابقين باب القدرة كعصا موسى وفلق البحر وناقة صالح وابراء الأكمة والأبرص واحياء الموتى لعيسى .

وأما ما كان لغير الأنبياء من باب الكشف والعلم ، فمثل قصة عمر لما أرسل جيشا أمر عليهم رجلًا يسمى سارية ، فبينما عمر يخطب إذ جعل يصيح على المنبر : يا سارية الجبل يا سارية الجبل فقدم رسول الجيش فسأل فقال : يا أمير المؤمنين لقينا عدوا فهزمونا ، فإذا بصائح : يا سارية الجبل فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله .

ومن كرامات الأولياء قصة سفينة مولى رسول الله ﷺ قال : ركبنا البحر في سفينة فانكسرت السفينة ، فركبت لوحا من ألواحها فطرحني في أجمة فيها أسد ، فلم يرعبني إلا به فقلت : يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله ﷺ فطأطأ رأسه وغمز بمنكبه ، فما زال يغمزني ويهديني الطريق حتى وضعني على الطريق وهمهم ، فظننت أنه يودعني .

فابن عبد الوهاب الملتزم طريق أهل السنة والجماعة في اتباع آثار رسول الله ﷺ في أقواله وأعماله ، واتباع سبيل السابقين ـ الأولين من المهاجرين والأنصار والأخذ بوصية رسول الله ﷺ حيث قال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » (١) .

وبناء على هذا الإلتزام والتمسك فابن عبد الوهاب يوافق على كل أمر يلتزم بالكتاب والسنة ولذلك فهو يقبل من الصوفية تنزيه الباطن من الرذائل

---

(١) رواه الحاكم في صحيحة .

(٢) ابن غنام ـ تاريخ نجد ـ ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

وبعض المقامات التي سنعرض لها ، ويقر بالكرامة الحقة التي يكون معها استقامه وعدم غرور فيقول : « وأقر بكرامات الأولياء وماهم من المكاشفات إلا أنهم لا يستحقون من حق الله تعالى شيئا ولا يطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله » [1] .

ثم يحذر الناس من الإغترار بخوارق العادات التي تجري على يد أناس غير صالحين : « أنه لا ينبغي أن يغتر بخوارق العادة اذ لم يكن مع صاحبها استقامة على أمر الله ، فإن اللعين أنظره الله تعالى ولم يكن ذلك إلا إهانة له وشفاء له ، وحكمة بالغة يعلمها العليم الخبير فينبغي للمؤمن أن يميز بين الكرامات وغيرها ويعلم أن الكرامة هي لزوم الإستقامة » [2] .

ويسوق الأمثال والوقائع على ذلك بما يفعله كثير من أتباع ابليس وأتباع المنجمين والسحرة والكهان ممن ينتسب الى الفقر ، وكثير ممن ينتسب إلى العلم ، من هذه الخوارق التي يوهمون بها الناس ويشبهونها بمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ومرادهم أكل أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله ، حتى أن بعض أنواعها يعتقد فيه من يدعي العلم أنه من العلم الموروث عن الأنبياء من علم الاسماء ، وهو من الجبت والطاغوت . ولكن هذا مصداق قوله ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم » ومنها هذه الحيلة الربوية التي مثل حيلة أصحاب السبت وأشد[3] .

إذن فابن عبد الوهاب يقر بالكرامة الحقة ويؤيد حب الصالحين الذين يرعون حق الله وفي نفس الوقت يرفض الاسراف في حبهم إلى الحد الذي يخرج المسلم عن الإعتدال ويوقعه في الشرك ويكون مصيدة للشيطان فيقول : « وأما الصالحون فهم على صلاحهم ، رضي الله عنهم ولكن نقول ليس لهم شيء من الدعوة » [4] .

وفي موضع آخر يقول : « ثم لما صار على أكثر الأمة ما صار اظهر لهم

(١) الدرر السنية ـ جـ ١ ص ٣٠ .
(٢) ابن غنام ـ تاريخ نجد ص ٦٠٥ .
(٣) المرجع السابق ـ ص ٢٢٩ .
(٤) الدرر السنية ص ٦٥ .

الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقهم وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين واتباعهم »[1] .

حارب ابن عبد الوهاب الغلو ومجاوزة الحد بأن يجعل للصالحين من حقوق الله الذي لا يشاركه فيها مشارك ، هو الكمال المطلق ، والغنى المطلق والتصرف المطلق من جميع الوجوه ، وأنه لا يستحق العبادة والتأله أحد سواه . كما جاء في محكم آياته ﴿ **اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون** ﴾[2] .

وقوله ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله**﴾ [3] .

ويوضح منهجه وما يجب على العبد في علاقته مع الصالحين وأولياء الله ويبين أقسام الناس في معاملة الصالحين ثلاثة أقسام : -

١ - أهل الجفاء الذين يهضمونهم حقوقهم ولا يقدمون من الحب والموالاة لهم والتوقير فيقول : « فالواجب عليك حبهم واتباعهم والاقرار بكرامتهم ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلال ، ودين الله وسط بين طرفين وهدى بين ضلالتين وحق بين باطلين »[4] .

(٢) أهل الغلو الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله بها . وقد أوضحنا في الصفحات السابقة العديد من هذه الصور .

(٣) وأهل الحق الذين يحبونهم ويوالونهم ويقومون بحقوقهم الحقيقية ولكنهم يبرأون من الغلو فيهم وادعاء عصمتهم والصالحون أيضاً يتبرأون من أن يدعوا لانفسهم حقاً من حقوق ربهم الخاصة ، كما قال الله عن عيسى (سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق)[5] .

هذه عقيدة ابن عبد الوهاب الذي لا ينكر الطريقة الصوفية في تنزيه

---

(١) الدرر السنية ص ٩٩

(٢) الأعراف : ٣

(٣) التوبة : ٣١ .

(٤) مجموعة التوحيد ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٥) المائدة : ١١٦ .

الباطن من رذائل المعاصي المتعلقة بالقلب والجوارح ، طالما استقام صاحبها على القانون الشرعي والمنهج القويم المرعي ، إلا أنه لا يتكلف له تأويلا في كلامه ولا في أفعاله ولا يعول ولا يستعان ولا يستنصر إلا على الله تعالى ونتوكل في جميع أمورنا عليه فهو نعم المولى ونعم النصير .

ثم يقول : « وإنما كتبت لكم هذا معذرة من الله ودعوة إلى الله لأوصل ثواب الداعين إلى الله »[1] .

ويحث تلاميذه من حوله من اتباع على كثرة الدعاء والتضرع إلى الله لجلاء النفس من كدوراتها فيقول : « فإن أصغى إليه قلبك بعض الشيء ، فعليك بكثرة التضرع إلى الله ، والانطراح بين يديه ، خصوصا في أوقات الاجابة : كآخر الليل ، وأدبار الصلوات ، وبعد الأذان . وكذلك بالادعية المأثورة ، خصوصا الذي ورد في الصحيح أنه ﷺ كان يقول : « اللهم ، رب جبريل وميكائيل . . »[2] .

فابن عبد الوهاب كما أسلفنا يؤمن بتنقية القلب وتنزيه الباطن وذلك بالطريق المشروع والمأثور عن رسوله ﷺ ويرفض شطحات الصوفية التي تقربهم من الغرور وتبعدهم عن الاستقامة التي رسمها الشرع للعبد ونعني الاستقامة في القول والعمل والاعتقاد ، ويكون ميزان كل ذلك الشرع لا شيء غيره من المصطلحات التي ابتدعها الصوفية .

وقد نقد الغزالي هذا الغرور الناجم عن اكرام الله لعبد من عباده بكرامة ما فقال : « وإنما يقيس على الماضي بواسطة الكرامة والحب إذ يقول لولا أني كريم عند الله ومحبوب لما أحسن إلي والتلبيس تحت ظنه أن كل محسن محب لا بل تحت ظنه أن أنعامه عليه في الدنيا إحسان فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عنده بدليل لا يدل على الكرامة »[3] .

---

(١) ابن غنام ـ تاريخ نجد ـ ٢١٩ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) أبي حامد الغزالي ـ إحياء علوم الدين جـ٣ ـ ٣٧٢ ط . الحلبي .

أولاً ـ التوحيد :

عني ابن عبد الوهاب بدعوة التوحيد إلى الله فهي أولى دعوات الرسل والانبياء ـ فكل رسول يفتتح دعوته لقومه بهذا التوحيد ﴿**أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾[1] وقوله تعالى ﴿**وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون**﴾[2] .

فدلت الآية على أن الله تعالى خلق الخلق لحكمة عظيمة وهي القيام بما وجب عليهم من عبادته وحده وبترك عبادة ما سواه. فخلق الخلق سبحانه لكل يؤدوا العبادة التي هي اسم يجمع كمال كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة . فالعبادة اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته وكمال الذل ونهايته . وهذا التوحيد الذي خلقوا له ودعوا إليه هو توحيد الألوهية، توحيد القصد والطلب . وأما توحيد الربوبية وتوحيد الاسماء والصفات وتوحيد الأفعال فهو توحيد العلم والاعتقاد والمراد من العبادة التي خلقوا لها هي العبادة الخالصة التي لا يلبسها شرك بعبادة شيء سوى الله كائناً ما كان . ويقول في ذلك : (وأما عبادته سبحانه وتعالى بالاخلاص دائما في الرخاء والشدة فلا يعرفونها ، وهي نتيجة توحيد الإلهية ، وكذلك الايمان بالله واليوم الآخر والايمان بالكتب والرسل وغيرذلك . وأما الصبر والرضا والتسليم والتوكل والانابة والتفويض والمحبة والخوف والرجاء فمن نتائج توحيد الربوبية وهذا وأمثاله لا يعرف إلا بالتفكر ، لا بالمطالعة وفهم العبارة »[3] .

فاثبات التوحيد بأقسامه الثلاثة لا بد أن يجتمع مع الاعتقاد العملي الذي هو الثمرة الحقيقية لوجود الانس والجن .

وقد كثر كلام الصوفية في تعريف التوحيد وحقيقته وأقسامه في مؤلفاتهم مثل الرسالة القشيرية[4] ، والكلاباذي[5] ، والسهروردي[6] والغزالي الذي

(١) هود : ٦١ . (٢) الذاريات : ٥٧ .
(٣) ابن غنام ـ تاريخ نجد ـ ص ٥١١ .
(٤) عبد الكريم بن هوازن القشيري ـ الرسالة القشيرية ـ ١٣٦ .
(٥) أبو بكر محمد الكلاباذي ـ التعرف لمذهب أهل التصوف ـ ١٣٤ ـ ١٣٦ .
(٦) أبي حامد الغزالي ـ إحياء علوم الدين ـ جـ ٤ ص ٣٤٠ .

نسوق له هذا التعريف فيقول : « التوحيد الذي يترجمه قولك : لا إله إلا الله وحده لا شريك له والايمان بالقدرة التي يترجم عنها قولك له الملك والايمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك وله الحمد فمن قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير تم له الايمان الذي هو أصل التوكل » .

وسئل البوشنجي عن التوحيد فقال : غير مشبه الذات ولا منفي الصفات[1] .

والمتابع لتعريفات أعلام الصوفية للتوحيد وبين ما جاء لدى ابن عبد الوهاب يجد فروقاً كثيرة نخص بالذكر ما يلي : -

(١) دعوة ابن عبد الوهاب إلى التوحيد تشمل جميع طبقات الناس .

(٢) دعوة التوحيد لديه مبنية على الاعتقاد والقول والعمل دون تفريق بين الظاهر والباطن .

(٣) لم يذهب إلى مذهب الصوفية في جعل التوحيد مقسم على أوجه ثلاث : توحيد العامة الذي يصح بالشواهد والوجه الثاني توحيد الخاصة وهو الذي يثبت بالحقائق والوجه الثالث توحيد قائم بالقلب وهو توحيد خاصة الخاصة . بل ألزم ابن عبد الوهاب كل مسلم أن يتعلم حقيقة التوحيد : توحيد الألوهية والربوبية وتوحيد الصفات ، كما جاء في كتابه الحكيم وكما بلغه رسوله الأمين .

(٤) إن مقام التوحيد ذهب بعض الصوفية إلى جعله آخر المقامات كما فعل الهروي . أو من جعله متقدما أو متوسطا مثل الغزالي . ولكن ابن عبد الوهاب لا يقدم على التوحيد أي فكر ولا علم تحت أي مسمى ويعتبر التوحيد هو أول دعوة الرسل وأعظم ما يتعلمه الخلق ويقول في ذلك : « فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي ﷺ وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج فكيف إذا جحد الانسان شيئا من هذه

---

(١) عبد الكريم بن هوازن القشيري - الرسالة القشيرية ص ١٣٦ .

الأمور كفر ولو عمل بكل ما جاء الرسول ﷺ وإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لا يكفر ؟ »[1] .

نخلص مما تقدم من النصوص الواردة في مؤلفات ابن عبد الوهاب إلى أن التوحيد الذي جاء به الرسل والانبياء هو إخلاص الدين كله لله وعبادته وحده لا شريك له في جميع أنواع العبادة التي أمر بها الاسلام .

(١) إن دعوة ابن عبد الوهاب في التوحيد أساسها الشرع وميزانه سنة رسول الله ﷺ ولا يقدم على هذه الدعوة أي شيء آخر مهما بدا عظيما .

(٢) لا يجوز دعوة الصالحين وأن نعلم جيداً أنهم على صلاحهم أنهم ليس لهم من الأمر شيء ويقول في ذلك : « وأن لا يتخذوا مع الله إلهاً آخر ونهاهم عن عبادة المخلوقين من الملائكة والانبياء والصالحين والحجر والشجر . . . »[2] .

ثمَّ يستطرد بأن هذا الكلام أي تجريد التوحيد من كل شائبة فيقول : « وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة »[3] .

وتلك حجة على من يشرك في عبادته أحداً ، أو يتعلل بعدم الفهم .

(٣) قول : ﴿لا إله إلا الله﴾ إبطال للوسائط .

ثانياً ـ الاخلاص :

أما الاخلاص : فحقيقته أن يخلص العبد لله في أقواله ، وأفعاله وارادته ونيته وهذه هي ملة إبراهيم عليه السلام وقد ورد في الكتاب والسنة وإجماع الأمة على اشتراط الاخلاص للأعمال والأقوال الدينية وأن الله لا يقبل منها إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه ولهذا كان السلف الصالح يجتهدون غاية

---

(١) مجموعة التوحيد ـ ٢٢٨
(٢) الدرر السنية جـ١ ص ٩٨ .
(٣) المرجع السابق .

الاجتهاد في تصحيح نياتهم ، ويرون الاخلاص أعز الأشياء وأشقها على النفس وذلك لمعرفتهم بالله وما يجب لله .

ويعرف الاخلاص الصوفية بتعريفات كثيرة ومتعددة أذكر منها تعريف الجنيد : « الاخلاص ما أريد به الله من أي عمل كان »[1] .

ويعرف الاخلاص صاحب الرسالة القشيرية : الاخلاص إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون شيء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله تعالى »[2] .

فلب الاخلاص لدى مفكري المسلمين جميعا هو تصفية الفعل عن ملاحظة الخلق أو انتظار مدح منهم والتوجه إلى الله **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾**[3] .

وقال تعالى : **﴿ألا لله الدين الخالص﴾**[4] .

ويستشهد الغزالي بقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه « لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فإن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل « أخلص العمل يجزك منه القليل »[5] .

ويهتم ابن عبد الوهاب بالاخلاص في العمل ويعتبرها من أعز الأمور التي يجب على كل مسلم أن يصل إلى هذه الحقيقة ولا يتم ذلك إلا بالصدق فيقول : « المسألة كبيرة ولما ذكر الامام أحمد الصدق والاخلاص قال بهما ارتفع القوم ، ولكن يقربهما إلى الفهم التفكر في بعد إفراد العبادة مثل الصلاة . فالاخلاص فيها يرجع إلى إفرادها عما يخالطها كثيرا من الرياء والطبع والعادة

---

(١) أبو بكر محمد الكلاباذي ـ التعرف لمذهب أهل التصوف . ص ٩٩ .
(٢) عبد الكريم القشيري ـ الرسالة القشيرية ـ ص ٩٥.
(٣) البينة : ٥
(٤) الزمر : ٣ .
(٥) أبي حامد الغزالي ـ احياء علوم الدين ـ جـ ٤ ص ٣٦٥ .

وغيرها ، والصدق يرجع إلى إقامتها على الوجه المشروع ولو ابغضه الناس لذلك »[1] .

إخلاص العبادة لله وحده ، وهو معنى قول الخليل عليه السلام : ﴿اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾[2] .

إخلاص الدين كله لله تحقيقا لقوله تعالى : ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾[3] .

فإن دين الإسلام هو دين الله الذي أمر به الأولين والآخرين . ويستطرد ابن عبد الوهاب في سوق الأدلة والبراهين عن حقيقة الاخلاص وما يلزمه فيقول : « الثالثة » « بل من أسلم وجهه لله وهو محسن ، وفسر إسلام الوجه بما يقتضي الاخلاص ، والاحسان في العمل الصالح المأمور به وهذان جماع الدين لا يعبد إلا الله ، ولا نعبده بالبدع بل بما شرع »[4] .

ثم يقيم هذا العمل الخالص لله فيقول : « إن هذين الأصلين هما تحقيق الشهادتين شهادة أن (لا إله إلا الله) وشهادة أن محمداً رسول الله فالأولى تتضمن إخلاص الألوهية فلا يتأله القلب غيره . . » (الثانية) « يتضمن تصديق الرسول فيما أخبر به وطاعته فيما أمر فلا حرام إلا ما حرم ولا دين إلا ما شرع »[5] .

فابن عبد الوهاب واضح الفكر والمنهج في هذا الأمر :

(١) فاخلاص الدين لله فريضة على كل مسلم ومسلمة .

(٢) العبادة تكون في حدود ما شرع الله دون إضافة أو ابتداع وقد شدد ابن عبد الوهاب على هذا الالتزام حتى لا تفسد العبادات وتشوبها الجهالات المختلفة .

---

(١) الدرر السنية جـ ٢ ص ٦٦ .
(٢) الأنعام : ٧٩ .
(٣) البينة : ٥
(٤) الدرر السنية جـ ٢ - ٤٢ - ٤٣ .
(٥) المرجع السابق .

ولأن العبادة مظهر العلاقة بين العبد وخالقه، وهذا المظهر ليس للعبد حق وضعه ، ولا بيان كيفيته وإنما هذا لله وحده ، ولهذا منع الأصوليون الاجتهاد في الأمور التعبدية .

(٣) عدم الاخلاص في العبادة تفرق الناس لأجلها بين مسلم وكافر ، وعندها وقعت العداوة ، ولأجلها شرع الجهاد[١] . كما قال تعالى : **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾**[٢] .

(٤) يجب أن يكون الاخلاص دائما في الرخاء والشدة ويعيب على أهل زمانه فيقول : « فلا يعرفونها وهي نتيجة توحيد الالهية »[٣] .

ثالثاً ـ التوكل :

إن التوكل على الله لا بد أن يكون علما وحالا وعملا والتوكل مشتق من الوكالة يقال وكل أمره إلى فلان أي فوضه إليه واعتمد عليه فيه ويسمى الموكول إليه وكيلا ويسمى المفوض إليه متكلا عليه ومتوكلا عليه .

ومن صفات المؤمنين كما وصفهم الله تعالى : **﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾**[٤] وقوله : **﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾**[٥] وقوله : **﴿يأيها النبي حسبك الله﴾**[٦] .

والتوكل من المقامات الأولى التي اعتنى بها الصوفي لكي يرقى اليها ويستطيع تحقيقها في رياضاته ، ويسوق القشيري حديث رسول الله ﷺ في بيان أهمية درجة المتوكلين على الله فيقول: «عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال رأيت الأمم بالموسم فرأيت أمتي قد ملؤا السهل والجبل فأعجبني كثرتهم وهيبتهم فقيل لي أرضيت فقلت نعم قال ومع هؤلاء سبعون ألفاً

---

(١) مجموعة التوحيد ـ ٢٣٦ .
(٢) سورة الأنفال : ٣٩.
(٣) الدرر السنية : جـ٢ ص١٠٨ .
(٤) المائدة : ٢٣ .
(٥) الطلاق : ٣
(٦) الأنفال : ٦٤ .

يدخلون الجنة بغير حساب لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقال عكاشه بن محسن الأسدي فقال يا رسول الله أدع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله ﷺ اللهم أجعله منهم فقال آخر فقال : « ادع الله أن يجعلني منهم فقال ﷺ سبقك بها عكاشة»(١) .

فالمتوكل دون اسراف فيه مقام محمود لا ينكره إبن عبد الوهاب على الصوفية ففي كتابه التوحيد يعقب على الحديث السالف الذكر بقوله : « الرابعة ثناؤ ه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك ، (الخامسة) كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد ، السادسة كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل »(٢) أما الجانب الذي يعيبه على الصوفية هو المغالاة في إنكارهم الجمع بين التوكل والسبب فيقول : « الجمع بين التوكل والسبب خلافا لغلاة المتفقهة وغلاة الصوفية »(٣) .

ويستشهد بقصة أهل الكهف للرد على منكري الأسباب أو من يذهب إلى أن هناك تعارض بين الجمع للتوكل والأسباب فيقول : « الرد على منكري الأسباب ، لأنه سبحانه قادر على إنجاء السفينة وتثبيت أبوي الغلام وإخراج الكنز له بدون ما جرى »(٤) .

والتوكل عند ابن عبد الوهاب فريضة يجب اخلاصه لله تعالى لأنه من أجمع أنواع العبادة الباطنة(٥) .

وفي موضع آخر يقول : « التوكل من لوازم الإسلام والايمان »(٦) . وفي موضع اخر ذكر أنواع العبادة التي أمر بها الاسلام فيقول :

« الدعاء والخوف والرجاء والتوكل والرهبة والخشوع . . . فمن صرف من ذلك شيئا لغير الله فهو مشرك(٧) . والدليل قوله تعالى :

---

(٤) عبد الكريم القشيري ـ الرسالة القشيرية ص ٧٥ ـ ٧٦ .
(٢) مجموعة التوحيد ـ كتاب التوحيد ص ٣١ .
(٣) ابن غنام تاريخ نجد ص ٦٦٧
(٤) ابن غنام تاريخ نجد ٦٣٨ .
(٥) مجموعة التوحيد ١٤٢ ـ ١٤٣
(٦) ابن غنام تاريخ نجد ٦٥٩
(٧) الدرر السنية جـ ١ ص ٨٣ .

﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه أنه لا يفلح الكافرون﴾(١) .

ولا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات إلا بكمال التوكل على الله .

قال الامام أحمد : التوكل عمل القلب وذهب ابن تيمية وابن القيم إلى القول بأن التوكل على الله شرط للايمان وأن من يتوكل على مخلوق خاب ظنه وخسر عمله وكان من المشركين .

أنواع التوكل :

التوكل قسمان : أحدهما التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله كالتوكل على الأموات والغائبين ونحوهم وهذا ما تشدد فيه ابن عبد الوهاب مثل الغلو في الأولياء والصالحين وطلب قضاء الحوائج منهم ويعتبر هذه الأعمال شركا أكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه .

القسم الثاني : وهذا التوكل على الأحياء الحاضرين من ذوي السلطان ونحوهم فيما أقدرهم الله عليه من رزق ودفع أذى ونحو ذلك فهو شرك أصغر . والمباح أن يوكل شخصا بالنيابة عنه في التصرف فيما له التصرف فيه من أمور دنياه كالبيع والشراء والاجارة والطلاق والعتاق وغير ذلك فهذا جائز بالاجماع لكن لا يقول (توكلت عليه) بل يقول « وكلته » فإنه لو وكله فلا بد أن يتوكل في ذلك على الله سبحانه(٢) . عن ابن عباس قال : (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام حين القي في النار وقالها محمد ﷺ حين قالوا له (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً)(٣) .

(١) ويشيد ابن عبد الوهاب بعظم شأن هذه الكلمة وأنها قول إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ في الشدائد .

---

(١) المؤمنون : ١١٧ .
(٢) مجموعة التوحيد ـ ص ١٤٢ .
(٣) رواه البخاري والنسائي .

(٢) أن التوكل من الفرائض .
(٣) أنه من شروط الايمان .

هذا هو موقف ابن عبد الوهاب من التوكل وقبوله له في الصورة التي رسمها القرآن الكريم وبينها صاحب السنة الأمين بعيداً عن المغالاة التي نحاها المتصوفة وتركهم للأسباب كلية ومحاربة النفس بما جبلت عليه من الحذر والخوف وفهموا بأن التوكل على الله بمعنى التواكل وترك الأسباب وعدم التزود بكل حالة بما يناسبها وثابت في السنة أن الرسول ﷺ كان يعدّ لكل أمر عدته وهو خير من توكل على ربه دون أن يصرفه التوكل عن إعداد العدة والتذرع بالأسباب ، حتى أنه ﷺ لما أمره ربه بالهجرة من مكة الى المدينة لم يدع احتياطاً ممكناً الا وأخذه ، ولا حيلة يمكن أن تصرف القوم عنه إلا سلكها فمن ذلك أنه أعد وأبو بكر راحلتين وزادا ورصدا عيوناً على الطريق ورتبا مرور القطيع ليخفي على آثارهما ، والتمسا المكث في الغار ثلاثة أيام لينصرف القوم عن طلبهما إلى آخر ما تحفل به كتب السيرة في قصة الهجرة .

وفي هذا رد على من أنكر الأسباب والجمع بينها وبين التوكل مثل الغلاة من الفقهاء والمتصوفة ، مع تأكيد حقيقة التوكل وأنه على العبد أن يكون على يقين بأنه لا يضره أحد بغير إذن الله تعالى ويقول في ذلك « الإرشاد الى التوكل بكونه لا يضر احداً إلا بإذن الله »[١] .

خلاصة الأمر أن على العبد أن يلتزم في العبادات الاتباع لا الابتداع فليس لأحد أن يشرع من الدين ما لم يأذن به الله ، قال تعالى : ﴿ **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله** ﴾[٢] .

وبهذا التزم ابن عبد الوهاب وألزم مجتمعه بالتمسك بأنه لا يعبد إلا الله وبما شرع وهذان الاصلان هما تحقيق شهادة أن « لا إله إلا الله » وأن محمداً رسول الله .

---

(١) ابن غنام - تاريخ نجد ٦٣٨ .
(٢) الشورى : ٢١ .

نتيجة ذلك أنه رفض كل ابتداع ذهب اليه أي فريق تحت أي مسمى . وتمسك بصرف العبادة كلها لله ، وحده فيقول « أي اعبدك يا رب مما مضى بهذه الثلاث بمحبتك ، ورجائك ، وخوفك فهذه الثلاثة أركان للعبادة ، وصرفها لغير الله شرك وفي هذه الثلاث الرد على من تعلق بواحدة منها . . . ، كمن عبد الله تعالى بالمحبة وحدها ، وكذلك من عبد الله بالرجاء وحده كالمرجئة وكذلك من عبد الله بالخوف وحده كالخوارج»[1] .

ويسوقنا الحديث الى بيان موقفه من المحبة .

رابعاً ـ المحبة :

كما رأينا منذ قليل أن ابن عبد الوهاب هاجم الفرق الثلاث الصوفية والمرجئة والخوارج لتعلق كل فرقة بعبادة الله عبادة منفردة عن باقي اركانها ، فصرف العبادة هو بتوحيد المحبة مع خضوع القلب والجوارح ، فمن أحب شيئاً وخضع له فقد تعبد قلبه له . فلا تكون المحبة المنفردة عن الخضوع عبادة ، ولا الخضوع بلا محبة عبادة ؛ فالمحبة والخضوع ركنان للعبادة فلا يكون احدهما عبادة بدون الآخر .

إذن فتوحيد العبادة هو إفراد الله سبحانه بأنواع العبادة مع محبته والخضوع لأوامره . ومن صرف شيئاً لغير الله فهو مشرك .

وقبل أن نفصل القول في بيان رأي ابن عبد الوهاب في المحبة نتناول بعض تعريفاتها لدى السادة الصوفية لأن مقام المحبة لديهم مقام عظيم وكانت عبادتهم لله تعالى تنفرد بالمحبة دون باقي أركان العبادة . وكان مسلكهم هذا موضع نقد أبن عبد الوهاب ولذلك كان لزاماً أن نتناول بعض تعريفاتهم بالبيان والتحليل يستشهد الغزالي بالحديث الذي رواه أنس عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا أحب الله تعالى عبداً لم يضره ذنب والتائب من الذنب كما لا ذنب له ثم تلا ـ إن الله يحب التوابين»[2] .

---

(١) مجموعة التوحيد : ٢٦٩ .

(٢) أبي حامد الغزالي ـ احياء علوم الدين ـ جـ ٤ ص ٣١٨ .

ويفسر الحديث فيقول : « ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب»[1] .

فابن عبد الوهاب الذي يقر بالمحبة في الاطار الذي ورد في كتابه الكريم وسنة رسوله والمحكومة بالعمل لا بهجر الحياة والبعد عن تعمير الكون والمحبة عنده ثمرة للمعرفة فمن عرف الله ووقف على صفاته ومعرفة نعوته تندفع القلوب الى محبته لأن القلوب لا تحب إلا من سبق لها معرفة به ، ووجدت فيه صفات ترغبها فيه وهذا ما دفع ابن عبد الوهاب الى التشدد في التمسك بإثبات الصفات لله تعالى والهجوم على أي فريق أنكر الصفات او أولها . واعتبر الكفار أعقل ممن أنكر صفات الله تعالى .

ويقول صاحب الرسالة القشيرية : المحبة حال شريفة شهد الحق سبحانه يوصف بأنه يحب العبد والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه[2] .

ويقول الجنيد : المحبة ميل القلوب .

ومعناه : ان يجعل قلبه الى الله وإلى ما لله من غير تكلف . وقال غيره : المحبة هي الموافقة ، معناه : الطاعة فيما أمر والانتهاء عما زجر ، والرضا بما حكم وقدر[3] .

ومثل هذا اللون من التعريفات الصوفية للمحبة لا يرفضها ابن عبد الوهاب . لأنه يقر بالمحبة المقرونة بالمعرفة المترجمة الى عمل في إطار الشريعة .

يرفض عبادة الله بالمحبة وحدها ويعيب هذا المسلك على الصوفية وينادي بعبادة الله بجميع انواع العبادة كما أقرها الله سبحانه وأكدها رسوله ومبلغ وحيه الأمين .

أقسام المحبة لدى ابن عبد الوهاب :

تنقسم المحبة عند الشيخ الى أربعة أقسام : ـ

---

(١) المرجع السابق .

(٢) عبد الكريم القشيري ـ الرسالة القشيرية ص ١٤٤ .

(٣) ابو بكر الكلاباذي ـ التعرف على مذهب أهل التصوف ١٠٩ .

(١) ـ محبة شركية وهم الذين قال الله فيهم **﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾**[١] . إلى قوله : **﴿وما هم بخارجين من النار﴾** .

(٢) ـ االمحبة الثانية : حب الباطل وأهله وبغض الحق وأهله وهذه صفة المنافقين .

(٣) - المحبة الثالثة : طبيعية وهي محبة المال والولد ، إذا لم تشغل عن طاعة الله ولم تعن على محارم الله فهي مباحة .

(٤) ـ المحبة الرابعة : حب أهل التوحيد وبغض أهل الشرك ، وهي أوثق عرى الايمان وأعظم ما يعبد به العبد ربه .

ونختم قولنا عن المحبة الخاصة التي لا تصلح إلا لله وحده وهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة وايثاره على غيره فهذه المحبة لا يجوز تعليقها بغير الله أصلاً ، وهي التي سوّى المشركون بين آلهتهم وبين الله فيها ، هي أول دعوة الرسل وآخر كلام العبد المؤمن الذي إذا مات عليه دخل الجنة ، باعترافه وإقراره بهذه المحبة وأفراد الرب بها[٢] .

ومصداق ذلك في قوله تعالى : **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾**[٣] . وفي المائدة : **﴿يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾**[٤] .

وفي آية يونس : **﴿الا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين امنوا وكانوا يتقون﴾**[٥] .

---

(١) مجموعة التوحيد ٢٦٩
(٢) الدرر السنية جـ ٢ ص ١٥٥
(٣) آل عمران : ٣١
(٤) المائدة : ٥٤ .
(٥) يونس : ٦٢ ، ٦٣ .

الفصل الثالث

موقفه من التوسل

انتهينا من بيان وتوضيح موقف ابن عبد الوهاب من التصوف ورفضه الصورة التي آلت إليها سلوك المتصوفة من التفاف العامة حولهم واتيان الكثير من الأفعال الجاهلية التي نهى الله عنها واعتبر هذا السلوك هو ردة إلى الوثنية الأولى ، ثم أوضحنا قبوله جوهر التصوف وهو السلوك الذي لا يتعارض مع الكتاب والسنة وأخذنا أمثلة على ذلك مثل التوحيد والاخلاص ـ التوكل والمحبة مع مقارنات لأقوال بعض الصوفية حول هذه المقامات وبين ما ذهب إليه ابن عبد الوهاب . ونتناول الآن التوسل المشروع وغير المشروع وبيان موقفه من هذا وذاك وميزان ذلك الكتاب والسنة .

التوسل في اللغة التقرب والوسيلة ما يتقرب به من الأعمال إلى الله عز وجل وهي أيضاً المنزلة عند الملك ، والدرجة والقربة . ووسل إلى الله توسيلاً ، عمل عملاً تقرب به إليه كتوسل والواسل الراغب إلى الله . يقول تعالى : ﴿**أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب**﴾[1] . وقال تعالى : ﴿**وابتغوا إليه الوسيلة**﴾[2] أي أطلبوا ما تتوسلون به إليه مما يقربكم إلى نيل ثوابه من فعل طاعة أو ترك معصية .

ولم يجعل الشرع للتوسل حقيقة غير الحقيقة اللغوية ففي حديث الآذان

(١) الاسراء : ٥٧

(٢) المائدة : ٣٥

(اللهم آت محمدا الوسيلة) والمراد بها في الحديث القرب من الله تعالى وقيل الشفاعة يوم القيامة ، وقيل منزلة من منازل الجنة[1] . والوسيلة التوصل إلى الشيء برغبة ، وهي أخص من الوصيلة لتضمنها معنى الرغبة ، وحقيقة الوسيلة إلى الله مراعاة سبيله بالعلم والعبادة ، وتحري مكارم الشريعة وهي القربة .

مما تقدم من تعريفات للوسيلة نجد أن الوسيلة تدور على أمور : -

١ ـ القربة .
٢ ـ الدرجة .
٣ ـ المحبة .
٤ ـ الحاجة .
٥ ـ الرغبة .

وإن التوسل إلى الله هو التقرب إليه بالأعمال الصالحة والقرب المشروعة وعليه ليس منها مناداة الأموات ، والاستغاثة بهم وسؤال الله لهم[2] .

وأما الوسيلة في عرف الناس اليوم تقع على الاستغاثة بالأموات ، والتمسح والتقبيل لقبور الأولياء التي تمتلىء بالزائرين لتقديم القرابين ويزرفون فوق ترابها دموع الندم والاستغفار متوسلين بأصحابها ، راجين منهم العفو والغفران ومن هؤلاء المخلوقات الحافية والعارية يتخذها الناس أولياء الله المقربين ، يعلمون الغيب ويملكون الحياة والموت فلم يكن أمام ابن عبد الوهاب إلا دعوة هؤلاء إلى الرجوع إلى القرآن الكريم وتنقية الدين من هذه الادران والخزعبلات ولكنهم كانوا يدركون أنهم لن يستطيعوا أن يغيروا ما بهؤلاء القوم بالوعظ وإقامة البرهان فحسب بل لا بد من تحكيم السيف أيضاً إن عز الاقناع ولم تنفع الحجة . لذلك كانت رسائلهم إلى القبائل تسبق جيوشهم . ويقول إبن عبد الوهاب في هذا الشأن : « وهذه هي المسألة التي تفرق الناس لاجلها

(١) مجموعة التوحيد ٢٢٢ ـ ٢٢٦
(٢) سليمان بن سحمان النجدي ـ الهدية السنية ص ٢٥ ط أولى وكذلك عبد الله القصيمي ـ البروق النجدية ٢٠ ـ ٢١ .

بين مسلم وكافر ، وعندها وقعت العداوة ولأجلها شرع الجهاد »[1] .

ومن الأشياء التي أثارت ثورة ابن عبد الوهاب شد الرحال من الاماكن البعيدة إلى القبور للتقرب إلى المقبورين والتوسل بهم وقراءة القرآن والاوراد على القبور ، ولأرواح المقبورين والصلاة إليها واستقبالها ، والبناء عليها وتجصيصها وايقاد السرج فوقها والطواف حولها . وفي هذا يقول : « ولكن هذه الأمور من أسباب حدوث الشرك ، فيشتد نكير العلماء لذلك ، كما صح عنه ﷺ أنه قال : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[2] .

ورغم إنكار ابن عبد الوهاب هذه الأفعال من الوان التوسل والتقرب إلى الأولياء والصالحين من أهل القبور والاحياء إلا أنه لم ينكر التوسل المشروع وهاك الأدلة : ـ

مما هو متفق على جوازه أن الحي يطلب منه سائر ما يقدر عليه ، سواء أكان بلفظ الاستغاثة أو بغيرها فيقول :

« فإن الاستغاثة بالمخلوق على ما يقدر عليه لا ننكرها كما قال تعالى في قصة موسى **﴿فاستغاثة الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾**[2] ، وكما يستغيث الانسان بصاحبه في الحرب وغيرها في الأشياء التي يقدر عليها المخلوق ونحن انكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله » .

ويستطرد ابن عبد الوهاب في بيان عقيدته حول المشروع من الاستغاثة ، مثل الاستغاثة بالانبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعوا الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف ، وهذا جائز في الدنيا والآخرة . مثل أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ويسمع كلامك وتقول له : أدع الله لي ، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه في حياته فيقول : « وأما بعد موته

---

(١) مجموعة التوحيد ٢٣٦

(٢) ابن غنام ـ تاريخ نجد ـ ٥٢٧ .

(٣) مجموعة التوحيد : ٢٣٢

فحاشا وكلا أنهم سألوه ذلك عند قبره ، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره ، فكيف دعاؤه بنفسه ﷺ »[1] .

ويرد ابن عبد الوهاب على من يأخذ من قصة إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار واعترض له جبريل وسأله : ألك حاجة فإن مساعدة جبريل وهو كما وصفه الحق تعالى : ﴿**شديد القوى**﴾ ولو أمره الله تعالى أن يفعل أي شيء لفعل ، ومثل هذا مثل رجل غني له مال كثير يرى محتاجا فيعرض عليه أن يقرضه ، أو أن يهب له شيئاً ليقضي به حاجته ، فيأبى ذلك المحتاج أن يأخذ ، ويصبر حتى يأتيه الله برزق لا منة لأحد . ثم يتساءل : « فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون ؟ »[2] .

وفيما يلي نعرض لأنواع التوسل المشروع التي توافق ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله وقبلها أهل السنة والسلف الصالح : ـ

النوع الأول : التوسل إليه بأسمائه وصفاته ، قال تعالى : ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**[3] .

وقال تعالى : ﴿**أنه كان فريق من عبادي يقولون، ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين**﴾[4] .

وقال عن أيوب عليه السلام : ﴿**وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين**﴾[5] .

النوع الثاني : بالصلاة كما تقبل الدعوة .

وذلك كصلاة الاستسقاء ، وصلاة الاستخارة والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة**﴾[6] . ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا همه

---

(١) مجموعة التوحيد ٢٣٢
(٢) المرجع السابق .
(٣) الاعراب : ١٨٠
(٤) المؤمنون : ١٠٩
(٥) الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤
(٦) البقرة : ٤٥

أمر هرع إلى الصلاة فإنها أعظم التقرب إلى الله عز وجل

النوع الثالث: بالتوحيد والإيمان. قال تعالى: **﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾**[١]. وقال **﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾**[٢].

وقال عن المؤمنين **﴿ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الأبرار﴾**[٣]. وقال: **﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾**[٤].

النوع الرابع: التوسل بالتسبيح:

قال تعالى في قصة يونس عليه السلام **﴿فلو لا أنه كان من المسبحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾**[٥]. فالله نجاه وقبل دعوته بتسبيحه.

النوع الخامس: التوسل بذكر الأعمال الصالحة السالفة عند نزول الضر لكشفه. روي البخاري ومسلم وغيرهما ـ واللفظ للبخاري ـ عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال نبي الله ﷺ « بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون فإذا أصابهم مطر فآووا إلى غار، فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: انه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق فليدع كل رجل منكم بما علم أنه قد صدق فيه. فالوسيلة المأمور بها هي الأعمال الصالحة[٦]، كما قال عز وجل اخبارا عن المؤمنين **﴿ربنا اننا آمنا فأغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾**[٧].

---

(١) الأنبياء: ٨٧، ٨٨.
(٢) المائدة: ٨٣.
(٣) آل عمران: ١٩٣.
(٤) آل عمران: ١٦، ١٧.
(٥) الصافات: ١٤٤.
(٦) الدرر السنية جـ١ ص ١٤٤.
(٧) آل عمران: ١٦.

النوع السادس : التوسل بحمد الله والصلاة على رسوله :

روى الترمذي عن فضالة بن عبيد وقال حديث حسن صحيح ـ أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يدعو في صلاته فلم يصل على رسول الله ﷺ فقال « عجل هذا ، فدعاه » قال له أو لغيره « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والصلاة على رسوله ، ثم ليدع بعد بما يشاء » .

النوع السابع : التوسل بالقرآن :

روي عن ابن ماجة أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : « اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿**والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحيم**﴾ وفاتحة سورة (آل عمران) » . وروي أيضاً عن القاسم قال : « إسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في سور ثلاث : البقرة ، وآل عمران ، وطه » .

النوع الثامن : التوسل بالصدقة ، وقد كان بعض العلماء يفعله لقبول الدعوة ، ويستدل بقوله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة**﴾[1] . فإذن الصدقة من صالح الأعمال .

النوع التاسع : التوسل بالتضرع والخشية والخشوع :

قال تعالى : ﴿**أدعوا ربكم تضرعا وخفية أنه لا يحب المعتدين**﴾[2] وقال ـ بعد أن ذكر اجابته للانبياء **كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين**﴾[3] .

النوع العاشر : التوسل بالاسرار والاخفات بالدعوة :

قال تعالى : ﴿**ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا . قال إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك ربي شقيا**﴾[4] .

وقال ﴿**وأذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين** ﴾[5] .

---

(١) الممتحنة : ١٢
(٢) الأعراف : ٥٥
(٣) الأنبياء : ٩٠
(٤) مريم : ٤ ـ ٦

النوع الحادي عشر : التوسل بدعاء الصالحين :

كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري وغيره أن الصحابة كانوا إذا أجدبوا توسلوا بالعباس بن عبد المطلب وقال عمر في عام الرمادة « اللهم إنّا كنا نتوسل إليك بنبينا فاسقنا » .

فيسقون واستسقى معاوية بن أبي سفيان بالأسود بن يزيد وقد ذكر الفقهاء استحسان ذلك في باب صلاة الإستسقاء[١] .

فالاستغاثة من أنواع العبادة وصرفها لغير الله شرك ويقول في ذلك : « أنواع العبادة التي لا تصلح إلا لله . . . من أنواعها الدعاء والاستغاثة والاستعانة وذبح القرابين والنذور والخوف والرجاء . . . »[٢] . ويسوق الأدلة من القرآن على كل نوع من أنواع العبادة فيقول عن الاستغاثة والاستعانة : ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾[٣] ودليل الاستغاثة قوله تعالى : ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم**﴾[٤] .

ثم يستطرد في توضيح حكم من يشرك في أنواع العبادة السابقة الذكر أحداً فيقول : « فمن صرف شيئا من أنواع العبادة لغير الله فقد اتخذ ربا والها وأشرك مع الله غيره أو يقصده بغير ذلك من أنواع العبادة وقد تقدم من الآيات ما يدل على أن هذا هو الشرك الذي نهى الله عنه »[٥] . فقد بعث الله رسله وأنزل كتبه ينهى أن يدعي أحد غيره ولا من دونه ولا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة وهذا هو دين جميع الرسل ثم يقول : « لم يختلفوا فيه كما اختلفت شرائعهم في غيره »[٦] .

ويقسم ابن عبد الوهاب أنواع الدعاء التي تقع في أهل زمانه إلى : -

---

(١) سليمان بن سحمان النجدي - الهدية السنية ص ٤٦
(٢) الدرر السنية جـ ١ ص ٩١
(٣) الفاتحة : ٥
(٤) الأنفال : ٩
(٥) الدرر السنية جـ ١ ص ٩٢
(٦) الدرر السنية جـ ١ ص ١٤٤

(١) النوع الأول : دعاء الله وحده لا شريك له الذي بعث به رسوله .

(٢) النوع الثاني : أن يدعو الله ويدعو معه نبيا أو وليا ، ويقول أريد شفاعته وإلا فأنا أعلم ما ينفع ولا يضر إلى الله لكن أنا مذنب ، وأدعو هذا الصالح لعله يشفع لي فهذا الذي فعله المشركون ، وقاتلهم رسول الله ﷺ حتى يتركوه ولا يدعوا مع الله أحداً لا لطلب شفع ولا نفع .

(٣) النوع الثالث أن يقول : « اللهم أني أتوسل إليك بنبيك أو بالانبياء أو الصالحين فهذا ليس شركا ولا نهينا الناس عنه ، ولكن المذكور عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهم أنهم كرهوه ولكن ليس مما نختلف نحن وغيرنا فيه »[١] .

(١) نخلص مما سبق إلى أن هناك أقساماً من التوسل جائزة وصحيحة ولب هذا التوسل أن لا يعتقد تأثيرا ولا خلقا ولا إيجاداً ولا نفعا ولا ضرا إلا الله وحده لا شريك له ولا يعتقد تأثيرا ولا نفعا ولا ضرا للنبي ﷺ ولا لغيره من الأحياء والأموات فلا فرق في التوسل بالنبي ﷺ وغيره من الأنبياءوالمرسلين وكذا بالاولياء . والصالحين لا فرق بين كونهم أحياء أو أمواتا لانهم لا يخلقون شيئا وليس لهم تأثير في شيء وإنما يتبرك بهم لكونهم احباء الله تعالى .

(٢) أن التذرع بالتبرك والتوسل فتح باب فتنه للعوام وبعض الخواص في أهل القبور وفي المعروفين بالصلاح من الأحياء أنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله ويفعلون ما لا يفعله إلا الله عز وجل حتى نطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم فأخذوا يعظمونهم تعظيم من يملك الضر والنفع .

(٣) أن مجرد عدم اعتقاد التأثير والخلق والايجاد والعدم والنفع والضر إلى الله لا يبرىء من الشرك فإن المشركين الذين بعث الرسل إليهم أيضاً كانوا مقرين بأن الله هو الخالق الرازق . بل لا بد فيه من إخلاص توحيده وإفراده في كل أنواع العبادة التي من بينها الاستغاثة والتوسل .

---

(١) الدرر السنية جـ٢ ص٤٣

(٤) أنه يجوز أن يستغيث بالمخلوق الحي فيما يقدر على الغوث فيه مثل أن يستغيث المخلوق ليعينه على حمل حجر أو يحول بينه وبين عدوه أو يدفع عنه لصا . . . ومن ذلك طلب الدعاء لله تعالى من بعض عباده لبعض وهذا لا خلاف في جوازه والاستغاثة الواردة في حديث المحشر من هذا القبيل، واسناد الاغاثة هنا تكون من قبيل العمل والكسب لا الخلق والايجاد.

(٥) أن يستغاث بمخلوق ميت أو حي فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وهذا هو الذي رفضه ابن عبد الوهاب ويقول فيه أهل العلم والتحقيق أنه غير جائز ويوصل إلى الشرك .

وصفوة القول عندي فيما يتعلق بالتوسل أن الله تعالى شرع العبادة لذاته تعالى بلا شريك أو وسيط وبين أنه الخالق النافع الضار وعلى الانسان أن يحقق كمال العبودية لله تعالى في توحيد الألوهية والربوبية . فلا جرم أن ابن عبد الوهاب أصاب لب الحقيقة في تقريره عدم جواز طلب العبد من العبد شيئا حيا كان أو ميتا شيئاً لا يملكه إلا الله . أما شبهة القائلين بأن التوسل هو التوجه بالطلب إلى الله عن طريق أحد أوليائه التماساً للإجابة من الله . فقول مردود بأكثر من وجه :

الوجه الأول : أن الله تعالى أمر العباد بتوجيه الطلب المباشر إليه **﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾** ولو كان توجيه الطلب عن طريق نبي أو ولي أو ملك مقرب مما يرضاه الله أو يكون سببا في اجابته الدعاء لحث على ذلك وندب إليه وهو ما لم يرد به نص في كتاب الله .

الوجه الثاني : أن الله تعالى على ما وصف به نفسه في كتابه وعلى ما وصف به رسوله ﷺ أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد وأعلم بسره وجهره منه وأرحم به من والديه بل من نفسه التي بين جنبيه فأي عاقل يترك توجيه السؤال إلى الرب القريب الرحيم المجيب ويتخذ له وسيطا في الطلب والدعاء ؟ .

الوجه الثالث : أن التوسل بمخلوق على أنه صالح وولي هو تزكية لمخلوق على الله وقد نهي الله عن ذلك ووصف المؤمنين بأنهم لا يزكون على الله أحداً . من يدعي الصلاح ويزين للناس التبرك به والتوسل فحسبه قول الله : **﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾**[1] .

---

(١) النجم : ٣٢ .